

طور جديد في تاريخ أوروبا السياسي بقلم باحث دبلوماسي كبير

تعرض عليه حضارتها وسلطانها السياسي ؛ وكانت أوروبا تحتفظ باستقلالها المنوي وسيادتها القديمة بين الشرق القديم وأهمه من ناحية وبين العالم الجديد (أمريكا) وأهمه من ناحية أخرى ؛ ولكن الحرب الكبرى أسفرت عن ظاهرة جديدة هي تراجع أوروبا عن دعاوها القديمة في الاستئثار بزعامة العالم القديم ، وإفاسحها المجال لزعامة أمة عظيمة نامضة هي اليابان التي استطاعت في الأعوام العشرة الأخيرة أن تقوض أسس النفوذ الأوروبي في الشرق الأقصى ، وشهدت أوروبا لأول مرة تدخل العالم الجديد في شؤونها الحيوية ؛ وقامت عصبة الأمم لتجمع أمم الشرق وكثيرا من أمم العالم الجديد مع أوروبا في صعيد واحد ؛ وبذلك نزلت أوروبا أمام تطور الظروف والحوادث المالية عن زعامتها القديمة واستئثارها القديم بالقيادة السياسية والمنوية في شؤون العالم

وهذا التطور في موقف أوروبا يرجع الى الثغرة العميقة التي أحدثتها الحرب الكبرى في القومية الأوروبية ؛ فقد خرجت أوروبا من الحرب محطمة ناضبة الموارد ، وانقسمت الى معسكرين كبيرين هما معسكر الغالبين ومعسكر المغلوبين ؛ واستأثر الفريق الظافر مدى حين بالزعامة في توجيه الشؤون ، فأمل على المغلوب شروطه المرهقة ، وعمل على تمزيق الوحدات السياسية القديمة ، وإحياء قوميات ناشئة ليحقق بقيامها أغراضا عسكرية وسياسية ؛ وبذلك مزقت أوروبا نفسها ، واضطربت الأحقاد القومية القديمة أضفاف ما كانت قبل الحرب ؛ وكان اضطرابها أشد في الجهة المغلوبة أو المغبونة ؛ ولم يلبث أن أسفر هذا الاضطراب عن النتيجة المحتومة ، أهني الانفجار ؛ فقامت الفاشية في ايطاليا ساخطة على هذه الزعامة وهذا الاستئثار في استخلاص المنعم والأسلاب وفي توجيه الشؤون ، وأخذت تعمل على إنشاء قومية إيطالية حديثة ، تضطرم بمختلف الأطماع الشريرة وغير الشريرة ، وتسرف في الحق ، وفي الوعيد والتحدى ، وتعمن في انتهاك النظريات والبادئ القديمة المتعاقبة بالحقوق والحريات الشعبية ، وتسخر من دعوة السلام ومن مبادئ العدالة الدولية . وقامت الاشتراكية الوطنية بمد ذلك في ألمانيا ، وشمارها الانتصاف لألمانيا مما نزل بها من فروض مرهقة ، ونحريرها من الأغلال التي

تجوز أوروبا اليوم مرحلة فاصلة في تاريخها القومي والسياسي . وقد ظهرت الأعراض الأولى لهذه المرحلة الجديدة في التاريخ الأوروبي عقب الحرب الكبرى ، إذ قامت عصبة الأمم لتحقيق أمنية عالمية ، ولتؤيد مبادئ السلام والتعاون بين الأمم ، ولتحاول القضاء على الحرب كأداة للسياسة القومية ؛ وقد كان قيام المصبة وما تحمل من مبادئ ومثل جديدة في السياسة الدولية ، وفي علائق الأمم ظاهرة جديدة في تاريخ أوروبا السياسي ؛ فقد كانت أوروبا حتى الحرب الكبرى تمثل من الناحية العامة كتلة معنوية موحدة ، وكانت تأخذ زعامة العالم القديم ، وتحول دائما أن

وما برح التقليدُ السخيف لا يعرف له بابا يبلغ منه الى السخفاء إلا باب التهاون والتسامح ؛ ونحن قومٌ اجتئنا بتزوير السيوب على أنفسنا وعدّها في المحاسن والفضائل ، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن . وهذه الطبيعة المكسوة نحاول أن نقبس من مزايا الأوروبيين فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبهم إذ كانت هي الأسهل علينا ، وهي الأشكلُ بطبعنا الضعيف التسامح التهاون

ومن هذا نجد مشاكنا الاجتماعية على أنها أهون وأيسر من مشاكل الأوروبيين ، وعلى أن في ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها - نجدها هي علينا أصعب وأشدّ لانتناضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون ، وكل ذلك من شيء واحد : وهو أن أكثر كبرائنا هم أكبر بلائنا

قال صاحب السر : ثم ضحك الباشا ضحكتة الساخرة وقال : كيف تصنع أمة يكون أكثر العاملين هم أكبر الماطلين ، إذ يعملون ولكن بروح غير عاملة ...

عن محمد قريش

(خطا)

الحدل والنقاش ، الى طور النضال المادي ، يهز أسس القوميات الأوربية ويهددها بأروع الأخطار التي يمكن تصورها وهناك ظاهرة عامة ليست أقل خطورة وأثراً في تطور تاريخ أوروبا السياسي ، تلك هي انهيار المبادئ العامة التي يقوم عليها القانون الدولي ، وانهيار الضمانات القومية والدولية التي كانت تكفل احترامها وتطبيقه . ففي الأعوام الأخيرة رأينا بمض الدول الكبرى ، مثل اليابان وإيطاليا وألمانيا ، تعمل على انتهاك المعاهدات والحقوق القومية والدولية بجرأة ترجع بالسياسة الدولية الى فوضى المصور الوسطى ؛ فاليابان تستدعي على منشوريا الصينية وتفتحها بالقوة المسلحة أمام سمع العالم وبصره ، وتتحدى عصبة الأمم ، ثم تفادرها لكي تطلق العنان لمشاريعها الاستعمارية دون أي تدخل أو وازع ، وما زالت تتابع اعتداءها على الأراضي الصينية طبقاً لخطة منظمة ترى الى بسط حمايتها المسلحة على هذه الامبراطورية الشاسعة ؛ وإيطاليا تحذو حذو اليابان ، فتفظم اعتداءها على الحبشة ، وتجرد أقوى وأحدث وحداتها على الشعب الحبشي الضعيف ، وتمطره وابلاً من القنابل الجوية والقاذات الخائفة ، ثم تنتزع منه أرضه قسراً ، وتضمها الى إيطاليا ؛ وذلك على رغم كل المهود والموائيق الدولية التي قطعها على نفسها باحترام استقلال الحبشة ووحدتها الجغرافية ، ورغم ما اتخذته عصبة الأمم في هذا الظرف من تقرير العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ؛ وهما هي ذى الفاشية تباهى اليوم بظفرها ، وتسخر جهازاً من عصبة الأمم ومن كل المعاهدات والموائيق الدولية ، وهي على أهبة لمزبقي أي ميثاق وأية معاهدة لاتتفق مع أطماعها العسكرية والاستعمارية . وأما ألمانيا المحتلة ، فقد خصت بضرابها أعظم دستور دولي وضع لأوروبا منذ معاهدة فينا ، ونفى معاهدة الصلح أو معاهدة فرساي ، فنقضت جميع نصوصها العسكرية التي كانت تقيد حريتها في التسليح ، والتي تتعلق بتحريم منطقة الرين ، ونقضت أخيراً نصوصها الخاصة بنظام الملاحاة الدولية في بعض الأنهار الألمانية ؛ ونقضت وثيقة دولية هامة أخرى هي ميثاق لوكارنو الذي فقد لتدعيم معاهدة فرساي وتأمين السلام في الحدود الفرنسية الألمانية ؛ وحطمت ألمانيا بذلك آخر القيود العسكرية والسياسية التي فرضت عليها في

طوق بها الغالب عنقها ، والارتفاع بها الى مكائنها القديمة في معترك الحرب والسياسة ؛ ولكن الاشتراكية الوطنية ، عملت من ناحية أخرى على إذكاء الأحقاد القومية والجنسية ، بصورة لم يسمع بها ، وقد فاقت الفاشية في عنف أساليبها ، وفي نزعاتها العسكرية والاعتدائية ، وفي سحق الحقوق والحريات الفردية ، وإنكار الحقوق العامة ، وفي تمحدي كل مبادئ العدالة الدولية ، وعادت النظرية الألمانية القديمة « الحق هو القوة » في أخطر صورها ؛ ولم تشهد أوروبا منذ حرب الثلاثين ، والحروب الدينية موجة في الاحقاد والمنافسات القومية والجنسية أشد من تلك التي تثيرها اليوم الفاشية الابطالية والنازية الألمانية

تلك هي الظاهرة الأولى في انحلال القومية الأوربية . وأما الظاهرة الثانية فهي معركة المبادئ التي تضطرم اليوم في أوروبا بصورة لم تشهدها منذ الثورة الفرنسية ؛ ولقد بدأت هذه المعركة قبل نهاية الحرب الكبرى ، حينما ظفرت البلشفية بتحطيم دولة القيصرية في روسيا ، وأقامت مكانها جمهورية شيوعية تمثل سيادة الكتلة العاملة ؛ وكانت المعركة يومئذ واضحة محدودة المدى ؛ فقد كانت البلشفية في ناحية ، وكانت أوروبا كلها في الناحية الأخرى تناضلها وترد غزوها ؛ بيد أن هذا النضال بين البلشفية والرأسمالية ينفذ اليوم في المحل الثاني بالنسبة لمعركة أشد وأبعد مدى تضطرم بها أرجاء القارة الأوربية ، تلك هي معركة الفاشية والديموقراطية ؛ فالفاشية أو بعبارة أخرى نظم الطغيان الضيف التي تحمل لواءها إيطاليا وألمانيا ، تحاول أن تنزرو الديمقراطية الأوربية وأن تصرعها ؛ والديموقراطية الأوربية تناضل عن كيانها بكل ما وسعت . وما زال حصن الديمقراطية في غرب أوروبا : في فرنسا وإنكلترا ؛ بيد أنه يمكن أن يقال أيضا إن روسيا البلشفية تنحاز في هذا الصراع الى جانب الديمقراطية ؛ وليس أدل على خطورة هذا الصراع ، مما نرى في الحرب الأهلية الاسبانية من انتظام القوى الفاشستية والقوى الديمقراطية وجهاً لوجه ، واعتماد الأولى على معاونة إيطاليا وألمانيا ، واعتماد الثانية على معاونة روسيا وفرنسا ، وظهور الحرب الاسبانية كلها بمظهر الصراع بين هاتين الجبهتين العظيمتين . فهذا الصراع المذهبي الذي يخرج اليوم من طور

كانت فرنسا تستعين بحالفة الدولة العثمانية على قتال خصومها الأوربيين ولا سيما أسبانيا ؛ وقد استطاعت أوروبا أن تقضى على هذه الظاهرة ، وأن تقف طوال القرن التاسع عشر متحدة ضد الدولة العثمانية حتى انتهت بتمزيقها ؛ وفي الحرب الروسية اليابانية كانت أوروبا كلها تتوجس شراً من انتصار اليابان ، ولو أن دولاً أوربية كانت تمنى ألا تنصر روسيا انتصاراً يؤدي إلى تقوية سلطانها في القارة ؛ ولما انتصرت اليابان ارتفعت أوروبا ، وذاعت من ذلك الحين صيحة الخطر الأصفر ، واجتمعت أوروبا على مقاومة الاستعمار الياباني حتى كانت الحرب الكبرى فانضمت اليابان إلى الحلفاء ضد ألمانيا ، واستولت على أسلحتها الاستعمارية في الصين . أما اليوم فإن ألمانيا تحالف اليابان ضد أوروبا ، وتحدث بذلك نفرة عميقة في إجماع أوروبا القديم ، وتجمع الشبهات العسكرية والاستعمارية بين الجنس الأصفر الذي اعتبر فيما مضى خطراً على أوروبا ، وبين الجنس « الآري » الذي تزعم ألمانيا المحتلة أنه أفضل أجناس العالم

وأخيراً نجد العالم الجديد (أمريكا) يتأهب للأخذ بنصيبه في توجيه سياسة القارة القديمة ؛ وقد دخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء ، وعاونت على ظفرهم في الحركة الخامسة ، واشتركت في شؤون أوروبا مدى حين ، ولكنها انسحبت منها حينما تفاقمت الفوضى الدولية في أوروبا ، وعادت إلى سياستها التقليدية من اعتزال الشؤون الأوربية ، بيد أنه يلوح لنا أن التحالف الياباني الألماني قد يحملها على المود إلى الاشتراك في السياسة الأوربية مرة أخرى ، وإلى عائق الدول الغربية على العمل لمصالحها المشتركة في الشرق الأقصى ، وهذا عامل خطير أيضاً في إضمار الطابع الأوربي للسياسة الدولية العامة

والخلاصة أن أوروبا فقدت زعامتها السياسية والاجتماعية القديمة ، وأخذت تندمج شيئاً فشيئاً في الوحدة العالمية الكبرى ؛ وقد فقدت فكرة الحضارة الأوربية ، وخصومة الشرق والغرب ، والتضامن الأوربي في الشؤون الاستعمارية كثيراً من معانيها وأوضاعها القديمة التي كانت تسبغ على أوروبا مكانة الزعامة والوحى والإرشاد

(•••)

معاهدة الصلح . ومما قيل في تبرير هذا النكث من جانب ألمانيا وكونها حلت عليه مضطرة لتقضى بذلك على الأغلال الظالة التي فرضتها عليها معاهدة الصلح ، والاتصاف لسياستها القومية ، وكرامتها كدولة عظمى ، فإنها بلا ريب قد عملت أكثر من أى دولة أخرى لتمزيق اليهود والمواثيق الدولية ، ولتقويض أسس الثقة بين الأمم وإضعاف هيبة القانون الدولي ؛ ولا ريب أنها قد أعادت للعالم ذكرى اعتدائها على البلجيكي في سنة ١٩١٤ وذكرى نظريتها الشهيرة في المعاهدات الدولية بأنها « قصاصات ورق » لا يمتد بها

فهذه الظواهر والظروف الخطيرة تهز اليوم أسس الدستور الدولي الذي عاشت القارة الأوربية في ظله منذ معاهدة فينا ، — أعني منذ قرن وربع — وتدفع بها إلى طريق جديد لم تتضح طوابعه بعد . بيد أن هناك ما يدل على أن هذا المصير الذي تنهيا أوروبا لاستقباله سيكون هائلاً مروعاً ؛ فالدول العظمى تستمد كلها لخوض أعظم معارك عرفها التاريخ ؛ والدول الصغرى ترتجف كلها فرقاً من المستقبل ، وتحسب لاعتداء القوة المسلحة أعظم حساب ؛ وهي لا تستطيع أن تعتمد على قوة المواثيق والضمانات الدولية كما كانت في الماضي بعد الذي رآته من عبث بعض الدول العظمى بكل هذه المواثيق والضمانات ، ولكنها تزعم في جميع الأحوال ألا تسقط دون دفاع : فالبلجيكي وهولندي وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وسويسرة وغيرها من الدول الصغيرة تجد في تسليم نفسها بكل ما وسمت ، وبمضها مثل البلجيكي وهولندي ينظر بمنتهى الجزع إلى مصير أملاكه الاستعمارية الواسعة ؛ على أن هذه الدول تندمج غالباً في إحدى الجبهتين الأوربيتين اللتين تستعدان لخوض المعركة القادمة ، ومصيرها يتوقف على مصائر المعركة ذاتها

وقد فقدت أوروبا القديمة زعامتها العالمية ، وفقدت حتى زمام سياستها الخاصة ؛ فاليوم نجد دولة أوربية عظمى هي ألمانيا تحالف دولة أسيوية عظمى هي اليابان ضد روسيا وضد الجبهة الأوربية التي تندمج فيها . وهذا تطور خطير في سياسة أوروبا التقليدية التي حرصت دائماً أن تواجه الشرق متحدة ؛ وهذه ظاهرة تعود بنا إلى القرن السادس عشر والسابع عشر حينما